رسائل أبي القاسم عبد الرحمان القالمي
–دراسة في السمات اللغوية –.

the letters Abou Elkacem Abderrahmane Elguelmi
Study of linguistic characteristics.

د. إبراهيم براهمي‡

تاريخ الاستلام: 18-01-2020 تاريخ القبـول:26-04-2020

ملخّص: موضوع هذه الدراسة هو البحث في البناء اللغوي لأحد الأشكال الأدبية الوظيفية في التواصل الاجتماعي والسياسي ألا وهو؛ خطاب الرسالة الديوانية الذي شاع في التراث الأدبي واللغوي الجزائري القديم ومن خلال الإجراء التطبيقي اللغوي الذي يستكشف بالدرجة الأولى الجانب التركيبي للغة ودلالاته المتنوعة وما تضطلع به السمات اللغوية من وظائف نحوية ودلالية .تناولت الدراسة رسائل أبي القاسم عبد الرحمان القالمي–وانطلاقا من المنهج الوصفي التحليلي–بتحديد مضامينها، والوقوف عند سمات البناء اللغوي لهذه الرسائل وخصائصها. لتعيد طرح التساؤل مجددا: عن مدى أصالة التراث الأدبي واللغوي الجزائري وجماليته الإبداعية البارزة والمتحققة في لغته وتركيبه .

كلمات مفتاحيّة: الرسالة الديوانية، أبو القاسم القالمي، اللغة؛ التركيب؛ الدلالة.

Abstract : The subject of this study is research in the linguistic structure of one of the functional literary forms in social and political communication, namely, the letter of Diwaniyah message, which was popular in the ancient literary and linguistic heritage of Algeria, and through the applied practical language that explores primarily the syntactic side of the language and its various connotations, and what the features play Linguistic functions of grammatical and semantic.

‡جامعة 8 ماي 1945.قالمة، البريد الإلكتروني: brahimi12@hotmail.com (المؤلّف المرسل)

The study examined the messages of Abi Al-Qasim Abdul Rahman Al-Qalami - and based on the descriptive analytical method - by defining its contents and examining the characteristics and linguistic properties of these messages. To ask the question again: the extent of the authenticity of the Algerian literary and linguistic heritage and its outstanding creative aesthetic in its language and composition.

Key words: Diwaniyah message, Abu al-Qasim al-Qalami, language, composition, significance.

المقدّمة: فن الترسل من أهم أشكال الخطاب اللغوي والأدبي في التراث العربي القديم؛ بما اضطلع به من وظائف التبليغ والتواصل في مختلف ميادين الحياة، ولا سيما في المجالين الاجتماعي والسياسي، وقد شرح الناقد" قدامة بن جعفر"(ت337هـ) الأصل في الترسل بقوله: (والتَّرسُّل من تَرَسَّلتُ أَتَرَسَّلُ تَرَسَّلا وأَنا مُتَرَسِّل، كما يقال تَوَقّفتُ أتَوَقّف تَوَقّفا وأنا مُتَوَقِّف، ولا يقال ذلك إلا لمن فعله في الرّسَائِل قد تَكرر وأَرسَل يُرْسل إِرْسَالاً فهو مُرْسِل، والاسم الرِّسالة أو رَاسَلَ يُرَاسِل مُرَاسلةً فهو مُراسِل وذلك إذا كان هو ومن يُرَاسِلهُ قد اشتركا في المُرَاسَل، وأَصلُ الاشتقاقِ في ذلك أنهُ كَلامٌ يُرَاسل بِهِ مَنْ بَعُد أو غَاب، فاشتق له اسم التَّرسُّلُ، والرِّسالةُ من ذلك) .

وقد تطور فن الرسالة في مضامينه ودلالاته؛ حتى استقر تعريفه في الاصطلاح النقدي بكونه: (قطعة من النثر الفني تطول أو تقصر تبعا لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه، وقد يتخللها الشعر إذا رأى لذلك سببا، وقد يكون هذا الشعر من نظمه، أو مما يستشهد به من شعر غيره وتكون كتابتها بعبارة بليغة وأسلوب حسن رشيق وألفاظ منتقاة ومعان طريفة)، هذا التحديد يؤشر على بعدين مهمين هما؛ البعد الوظيفي للرسالة في الحياة العامة، وعلى البعد الجمالي للرسالة وما يجب أن تتصف من سمات جمالية.

ولعل من أبرز ألوان الترسل في التراث الجزائري؛ الرسالة الديوانية؛ التي كانت تصدر من وزارات الدولة ودواوينها؛ وتوجه من ذوي السلطان إلى الولاة والأمراء أو إلى توجه إلى الخاصة أو العامة من الناس، وقد ازدهر هذا اللون مع مختلف الدول والإمارات التي قامت في تاريخ الجزائر.

وتعد رسائل أبي القاسم عبد الرحمان القالمي أنموذجا طريفا ومتميزا في مضامينها أو في جودة سبكها الفني وتركيبها اللغوي؛ فأعطت الوجه المشرق للإبداع الجزائري في عهد الدولة الموحدية، فكانت لغته الراقية معبرة عن براعته في هندسة العبارة وتشكيلها. ولأجل استكشاف طبيعة التركيب اللغوي في رسائله وسماتها؛ كانت هذه الدراسة محاولة لطرح عديد الأسئلة عن طبيعة مضامين رسائله ومقاصدها؟، وسمات التركيب اللغوي لرسائله وخصائصها؟، ولهذا الغرض كان لا بد من استعراض أنماط الجملة، وطبيعة البناء الفعلي والاسمي لرسائله دون إغفال أدوات الربط وما تؤديه من وظائف تركيبية. تبعا لذلك فقد جاءت الدراسة من حيث تصميمها وفق ما يأتي:

– مقدمة أوضحت فيها مفهوم الترسل في التراث العربي وأهميته في التعبير عن حاجات الخاصة والعالمة من الناس.

–وفي محورين اثنين من الدراسة؛ عرضت في المحور الأول من الدراسة لمضامين الترسل عندي أبي القاسم القالمي. وفي المحور الثاني توقفت عند البناء اللغوي لرسائل أبي القاسم القالمي وسماته ففصلت القول في أنماط الجملة؛ وطبيعة الأفعال والأسماء وأدوات الربط في رسائله .

–ثم خاتمة أوجزت فيها أهم نتائج الدراسة، فقائمة للمصادر والمراجع.

.2مضامين الترسل عندي أبي القاسم القالمي :

تندرج رسائل أبي القاسم القالمي ضمن (أدب المعاملات الرسمية بين الحاكم ورعيته والرعية والحاكم كالنصح والإرشاد.)( )، والدارس المتفحص حينما يحاول تحليل هذا المضمون العام لرسائل أبي القاسم القالمي، فإن ذلك يتطلب منه وضعها في سياقها الزمني بمعطياته الثقافية والاجتماعية والسياسية، فمراعاة هذه الاعتبارات السياقية تجعلنا ندرك جلالة الموضوعات التي طرقها في رسائله، وعظم ما حملته في زمنها من أنباء للمخاطب بها (المرسلة إليه) سواء أكانت موجهة من الخليفة الموحدي إلى قادته وجنده ورعيته والعامة من الناس، أم موجهة من قادة الجند إلى الخليفة الموحدي .

يمكن أن نتصور على الصعيد الثقافي ما تضطلع به الرسالة الديوانية – من منظورنا المعاصر– من الدعاية الإعلامية، وصناعة الرأي العام، وتوجيهه من خلال نشر أخبار مبشرة والإشهار بها، وليست هذه المقاصد ببعيدة في أبعادها من تلك التي تحققها في الجانب الاجتماعي؛ إذ تنهض الرسالة الديوانية حين إذاعتها بدور تحقيق تماسك النسيج الاجتماعي بين أفراد الرعية وتلاحمهم خلف الراعي، ثم لنلاحظ ما لذلك من نتائج في الجانب السياسي من تقوية شوكة الخلافة– الموحدية– وتعزيز نفوذها وقوتها، وإعطاءها الهيبة فيما جاورها من بلدان؛ وهو ما انعكس في سطوتها وتمدد خلافتها في الشمال الإفريقي كله حتى وصل إلى ما وراء البحر، وقد شملت رسائله في مضمونها عدة موضوعات نوجزها في صورتها العامة في جانبين اثنين :

1. 2الانتصارات التي حققها الجيش الموحدي في بلاد المغرب الأوسط والأدنى والاستيلاء على أقطار جديدة؛ وذلك بإخضاع القبائل التي كانت تمتد في هذه الربوع لسلطان الدولة الجديدة، وما تحقق فيها من استتباب الأمن والطمأنينة بعدما كانت ميدانا للفرقة والعصيان وعدم الطاعة؛ يقول أبو القاسم القالمي واصفا هذا النصر:(وفي حين هذِهِ المُخاطبةِ– وفقَّكم الله– وصلَتْ أَوائلُ العَساكِرِ المنصورةِ فقصَّتْ من قِصَصها عبرةً لأُولي الألبابِ وأطلعَتْ من

معاني هذا الفتح المبارك ما أَربى على العُجبِ العُجابِ، وأَنبأَتْ بما أَرسلَ الله في جميع بلادِ إفريقية من سماءِ الأمنِ المنسكبِ المنسابِ، وأَوسعها من مُنتثرِ العدلِ ومُنبسطِ الفضلِ ما لا يحتجب عن متطلَّبهِ بحجابٍ،،،.)؛ ومما تتفرع عن هذا المعنى العام بيان استسلام الكثرة من القبائل ودخولهم في طاعتهم، واندماجهم في دعوة الموحدين، بعد أن ظلوا نحو قرن يعيثون فسادا في الديار المغاربية، ليصف نتائج هذا النصر العظيم؛ في طمس آثار الكفر بمظاهر الإيمان، ووصل الأرحام وحقوق الله، ودحض الباطل ودمغه بالحق، وسكون الظلم، وانكماش الجور .

ولقد اقتضى هذا الإنجاز الباهر وصفه من الكاتب–على لسان الأمير عبد المؤمن بن علي–بنصر الله، والفتح العظيم، والأمر السعيد، واللطائف الإلهية والصنائع الربانية. يقول: واصفا إحدى حملاته وما صحبها من توفيق هو أشبه بالمعجزات (وما اطَّردَ بين حَاشِيتيْ بِداياتِهِ، ونِهاياتِهِ، أَحوالٌ من اللطائف الإلهيَّة والصنائع الرَّبانيّة، لا تنحطُّ رتب عيانها إلى الآثار، ولا تتعرّض صُورُ شَاهدِهَا في مَعرض الاعتبارِ؛ وإنَّما هي نُبذٌ تهدي مخايلٌ، وتُقيم لكم إمارات على نصرِ الله تعالى ودلائلٌ. وكان هذا الفتحُ العظيمُ في حين إِعلامِكمْ، ولا كُملَ لهُ من مُستصفى مُستحقهِ العقد، وأنهينا إليكم نَبأهُ وهو في مضمارِهِ مُسترسل، وإلى مقتضى آثارِهِ من كُلِّ حَدب ينسلُ، وأَحلناكم فيما وصل على ما سيصل.)

وحينما نريد تحديد طبيعة هذا القسم من الموضوعات فيمكن إدراجه ضمن قسم: وصف الأوضاع الداخلية للخلافة والملك وفرض الولاء والطاعة لهما؛ على غرار ذكر الانتصارات على المخالفين، وإطفاء الفتن والقضاء على الاضطرابات في أطرافها. مما شاع في أدب الرسائل الديوانية في ذلك العصر .

2. 2.أخبار التوسع بالأندلس والعلاقة بالدول المجاورة لها، ومما يرتبط بها من موضوعات من نحو: دحر خصوم الخلافة الموحدية والتنكيل بأعدائهم؛ ومن ذلك ما ورد في هزيمة الأعداء

(النصارى) في ضواحي قرطبة حينما أرادوا الإغارة على الجيش العربي، حيث ولوا على وجوههم مدحورين؛ في هزيمة نكراء فتك فيها جند الموحدين بخصومهم بعدما حاولوا أن يغدروا بهم، وسأوجز هنا ما وصف به أبو القاسم القالمي هذا الحدث على لسانه: بأن هؤلاء القوم رجالاً من ذميمي النصارى من أهل "آبلة" وانضاف إليهم من "الافريرين" وغيرهم، وقد سولت لهم أنفسهم الخائنة الخروج إلى الغارة بهذه الجهات، تَخيّلاً منهم أنَّ جنودَ الله الموحدين قد تفرَّقت ذاهبةً وانتهاراً منهم للفرصة لوقت الغزو. فتهوروا مقدمين؛ وأَجازوا الوادي الكبير بين "قرطبة" و"إِشبيلية" واكتسحوا جملاً من الغنم كثيرة بجِهة "إِسْتِجَّة"؛ ثمَّ عطفوا على الموضع المعروف بـ"الكنبانية" من قبليّ قرطبة وجعلوا ذلك طريقهم إلى "مُنْتُورُ ". ولمَّا اتَّصل نباؤُهم الذميم، وتوجَّه فيهم الصنع الكريم، ميزوا العساكر المنصورة وتسريبها إليهم، فاتَّبعوهم مجدِّين واستمرُّوا في جدِّ الإتّباع على وجههم الميمون إلى أن هتفت البشائر مالئة الأسماع، طالعة من أحسن ثنايا الاطلاع. وورود الفتح الجليل، والصنع الجميل.

تتحدد طبيعة هذا المضمون بكونه يحمل البشارة بالفتوحات في بلاد الأندلس وبسط الخلافة الموحدية لنفوذها في أرجائها، ويكشف قوة جيش الموحدين؛ إيمانا منهم أن ذلك إعلاء لراية الدين وكسر لشوكة الكفر، وهي جوانب تعكس مبلغ قوة الدولة الموحدية ونفوذها في زمنها.

والملاحظ فيما يخص جانب المضامين والأغراض؛ أن الكاتب أبو القاسم لم يخرج في هذا المسلك عن نسق أدب الرسائل في ذلك العصر؛ التي أوضحها النقاد في أبحاثهم؛ يقول قدامة بن جعفر(ت337هـ):(فالخطب تستعمل في إصلاح ذات البين، وإطفاء نائرة الحرب وحمالة الدماء، والتسديد للملك، والتأكيد للعهد في عقد الأملاك، وفي الدعاء إلى الله عز وجل وفي الإشادة بالمناقب، ولكل ما أريد ذكره ونشره وشهرته بين الناس، والترسل في أنواع من هذا، وفي الاحتجاج على المخالفين من أهل الأطراف، وذكر الفتوح، وفي المعاتبات والاعتذارات، وغير ذلك مما يجري في الرسائل والمكاتبات).

.3البناء اللغوي لرسائل أبي القاسم القالمي:

تتصف رسائل أبي القاسم القالمي في جانبها اللغوي بعدد من الخصائص المميزة لها سواء في جانب التراكيب الإسنادية(الجمل)، أم في العناصر النحوية المكونة لها من أسماء، وأفعال وأدوات ربط؛ وهو ما سيتضح فيما يأتي:

.1 .3الجملة:

تفحص طبيعة التراكيب اللغوية التي يتكون منها خطاب رسائل عبد الرحمان القالمي تشير إلى التنوع في استخدام الجمل النحوية والتلوين بينها، وعدم التزام نمط واحد منها؛ الأمر الذي قد يضفي نوعا من الرتابة على التكوين اللغوي للنص؛ وتعدد صور الجملة في النصوص في نظر النقاد والدارسين هو مما يسهم في الثراء اللغوي للنص، ويجسد مقدرة الكاتب اللغوية في الكتابة والتأليف، وهو ما يمكن أن نستشفه مثلا من التقسيم الاسمي والفعلي للجملة الذي يشير إلى ما يلي:

–إن الخطاب بالجملة الفعلية في رسائل أبي القاسم القالمي أخذ حيزا معتبر من نسيج تراكيبه اللغوية، وهو ما نلحظه في هذه العينة من الأمثلة(بلَّغهم في أعدائِهم وَكَّل بهم أَيَّة ولجوا ومَكَّنَ لهم إنقاذاً لمقدورِهِ، فَاؤوا بشرفِ الفتحِ الجسيمِ، ابتغوا رُضوانَ الله، نحمد الله على آمال في إظهار أمره، وأنهينا إليكم نبأه، وأحلناكم فيما وصل على ما سيصل، واستخلص من قصده المظفَّر مصطفاه ومجتباه، فألقوا بمقاليد الانقياد، وانخرطوا في سلك أهل التوحيد، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مصافرة الغزو ومصابرة الجهاد...)( )؛ ودلالات هذا الخطاب أن الفعل الذي يتصدر الجملة إلى جانب الإخبار (أحداث) فإنهُ يدل على الحركة والنشاط والتجدد لارتباطه بالزمن كما ذهب النحاة إلى ذلك.

وقد سلف القول أن رسائل القالمي تموج بالأحداث والحركة والنشاط المجسد؛ من خلال أحداث متتالية في سيرورتها الزمنية؛ انتقال من قطر إلى قطر، وغزوات وفتوح، وانتصارات. فكانت

الجملة الفعلية التركيب اللغوي الأمثل في التعبير عن هذه الأحداث المرتبطة بهذه السيرورة الزمنية .

–وفيما يتعلق الخطاب بالجملة الاسمية فهو نمط لغوي له وظائفه التركيبية في الكلام؛ وقد مال الكاتب أبي القاسم القالمي إليها في رسائله لتحقيق جانب من هذه الوظائف؛ ومن هذه الوظائف الدلالة على الثبوت واللزوم وذلك حينما يكون المسند اسما؛ وصورة الجملة الإسمية في هذه الحالة (اسم مع اسم) ؛ ومن ذلك قول أبي القاسم القالمي(هَذا الفتحُ–وفقكم الله وأعانكم– وإنْ كَانَ عظيماً في نفسِهِ، عَالياً في جنسِهِ، فإنَّه للفتوح مفتاحٌ، وبَين يَدي السَّعي فيها مصبَاحٌ، وإنّهُ رائدُ الفُتوحِ المنتظرةِ وعُنوانُ الخيراتِ الميسَّرة ونَازلٌ من الفتوحِ الآتية بمحلِّ البَاكرِ من الثَّمرةِ). ففي هذه الجمل الاسمية إثبات وتقرير لأحداث لازمة فيها ديمومة واستمرار. فالفتحُ حدثٌ واقعٌ وقارٌ، ومضيء مثل المصباح لما سيأتي من الانتصارات في مقبل الأيام هذا الفتح الذي يمثل الباكورة للقادم من الفتوحات وذلك كله له دلالة الثبوت. كما تشيع في رسائل أبي القاسم القالمي الجمل الاسمية من الصورة الثانية (اسم مع فعل)؛ أي حينما يكون المسند فعلا، ومن أمثلتها المتفرقة في رسائله (المبتعث لتتميم مكارم الأخلاق، وقد كان مقامنا بهذه الجزيرة – مهَّداها الله– لتتميم المقصود، فهذا الفتح العظيم قد عظمت به النعمى). والجمل الاسمية في هذه الحالة تلحق بالجملة الفعلية في دلالتها على الحركة والنشاط والتجدد .

ومن وظائف الجمل الاسمية في رسائل أبي القاسم القالمي دلالتها على التأكيد والمبالغة في مثل قوله (فإنَّه للفتوح مفتاحٌ، وبَين يَدي السَّعي فيها مصبَاحٌ، وإنّهُ رائدُ الفُتوحِ المنتظرةِ فإنّهم بعد أولئك الهلكى المطرَّحين بمنزلة الرمح بعد السِّنان)، ففي هذه الأمثلة نجد التأكيد والمبالغة المجتمعة في صورة الزيادة التي تمت ب"إنّ" والتي كانت أكثر توكيدا بزيادة اللام في الجملة الأولى؛ وإلى مثل هذه الوظيفة في الخطاب بالجملة الاسمية أشار الناقد "ضياء الدين بن الأثير(ت637هـ)" قديما بقوله:(وإنما يُعْدلُ عن أحدِ الخطابين إلى الآخر لضربٍ من

التوكيد والمبالغة، فمن ذلك قولنا: قام زيدٌ، وإنَّ زيداً قائم، فقولنا: قام زيد معناه الإخبار عن زيد بالقيام، وقولنا: إن زيدا قائم معناه الإخبار عن زيد بالقيام أيضا، إلا إن في الثاني زيادة ليست في الأول وهي توكيده بإنَّ المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها، وإذا زيد في خبرها اللام؛ فقيل: إن زيداً لَقَائمٌ، كان ذلك أكثر توكيداً في الإخبار بقيامه) .

ولا نبرح نظام الجملة دون الإشارة إلى جانب الكم فيها؛ والملاحظ أن الجمل في رسائل أبي القاسم القالمي تراوحت بين الطول والتوسط والقصر ؛ هذه الأنماط ترتبط في حضورها بالتناسب بين أقسام الكلام، ويتدخل في وجودها البعد البلاغي الجمالي لأواخر الكلمات التي يقتضي إيقاعها الصوتي درجة معينة من الطول والتوسط والقصر؛ وهو ما يمكن ملاحظته في هذا المثال (فالحمدُ لله الذي بوَّأَ أَمره مكاناً عليًّا، ونصب للعالمين صراطاً سريًّا، وجعله بعموم الخير وشمول البركة مليًّا وفيًّا) .

2. 3.الأسماء

الاسم لفظ دال على الحدث غير مقترن بزمن، وهو في غير حالة الإسناد (مبتدأ أم فاعلا) يعول عليه في بيان المعاني النحوية ذات الدلالة السياقية المهمة للمخاطب نحو: النعت والحال، والتمييز، والتوكيد وسواهما. وأحسب أن الاسم مفردا في رسائل أبي القاسم القالمي من أكثر صوره شيوعا؛ صورة النعت الحامل لوظيفة الواصف للذات المبجلة المكرمة؛ ومن ذلك قوله: في ذكر الرسول محمد (والصلاةُ على محمّد عبده، ورسوله، الحاشر، العاقب، الصادع بنوره الثاقب لبابة الانتخاب، وسلالة الانتجاب، العاكف الذائب، والجد الثابت اللازب، والأثرة المشتملة على شرف المناسب وزلف المناصب. وصلى الله على نبيّهِ المصطفى محمَّد الهادي.) فهذه الأسماء أوصاف جليلة–وإن كان بعض منها يرقى إلى مرتبة العلم–للنبي الأكرم محمد. ويأتي الوصف والنعت للأحداث المسرات في صورة المبالغة والتعظيم في مثل هذه الأوصاف: (أحوالٌ من اللطائف الإلهية والصنائع الربانية، الفتح العظيم العساكر المنصورة، الفتح المبارك

الأنفال المباركة، على طريقة سويَّة، ومعاملة برَّة تقيَّة، استحقَّ بها من الرأي الجميل، البساط الفيَّاح والفضاء المنداح، الأمر العزيز الحركة الميمونة السعيدة) .

ويشيع الاسم في صورة الحال هذا المعنى النحوي الذي يضطلع بوظيفة بيان هيئة الذوات وأحوالها؛ ومن ذلك قوله: (الهادي إلى سبل السلام ترغيبا وترهيبا، لبَّى دعوته إلى ربِّه سامعاً مجيباً ساميا، وذهبت به الأهواء المتبعة والأضاليل المتبدعة تصعيدا وتصويبا، وعن صاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين مؤازره، ومظاهره توسيعا لأكناف الدعوة العلية وترحيبا وأهلية القيام بأمره العظيم منصورا ومفتوحا له ومصيبا،،،). ففي هذه الأمثلة نحا الكاتب أبي القاسم إلى الارتكاز على الأسماء الأحوال المبينة للهيئة .

وتشيع في رسائل أبي القاسم بشكل لافت الأسماء المعارف( )، ومن ذلك الضمائر الحاملة لدلالة التستر وعدم التصريح للذوات تأتي بنوعيها المنفصل والمتصل، فضمير الجمع المتكلم المنفصل "نحن" – الدال على التعظيم إذا استخدمه المتكلم المفرد– عنصر لغوي محوري في التخاطب يأتي في الغالب على لسان الخليفة في مثل قوله (ونحن نحمد الله على آمال في إظهار أمره وُفيتْ)، ويشترك معه ضمير الجمع المتصل النون المعبر عن المتكلم المفرد كالجماعة؛ في مثل قوله (وقد كنَّا – أَعزكم الله بتقواه– قدَّمْنَا مطالعتكم بما سنَّاه الله تعالى)، ويقابله الاعتماد على الضميرين المتصلين إفرادا وجمعا في صورة الهاء وضمير "هم" وهو ما نلحظه في مثل هذه العبارة (فالحمدُ للهِ الذي تَمَّم مقاصدَ أوليائهِ فيما اعتمدوهُ من إقامةِ أمرِهِ الواجبِ. وأنافَ بأغراضِهم المقصورةِ على مرضاتِهِ)، وعلى الجملة فالضمائر تكمن أهميتها في الإحالة وتحقيق الربط والتماسك بين التراكيب اللغوية للنص، وقلما نجد في رسائله توظيف لضمائر النصب .

وفيما يتعلق بالعلم من أسماء المعارف فرسائل أبي القاسم تطفح بسجل اسمي قيم يكشف عن معطيات ثقافية واجتماعية وتاريخية مهمة للنقاد والدارسين؛ ويتراوح هذا السجل

الاسمي في مضمونه بين أسماء الأشخاص وكناهم وألقابهم، وأسماء الدول والإمارات والطوائف والقبائل وبطونها وأفخاذها، وألقاب الوظائف والرتب وأسماء الأمكنة وما سواهم؛ ومن ذلك:(أَمير المؤمنين، والطَّلَبة، والشيوخ والموحَّدين وأَهلِ فاس، وعَرَب إِفريقية، والقبيل الرياحيّ وفخذٌ ببني محمّد، وجُشَم ، وقبائل الأَثْبَج، وقبائل زُغْبة، وأبا يعقوب يوسف بن مالك، والجزيرة والنصارى، وأهل آبلة والافريرين، والوادي الكبير، وقرطبة، وإِشبيلية، وإِسْتِجَّة، أبي حَفْص،،،.) .

وإلى جانب الضمائر وأسماء الأعلام فإننا نجد للأسماء الموصولة وأسماء الإشارة دورا كبير في البناء اللغوي لرسائله بما حملته من معاني جليلة من مثل؛ التفسير والإشارة والتعظيم والتعريض والتوضيح والوصف. وكما أدت الأسماء الجوامد دورا وظيفيا في نسق رسائل أبي القاسم القالمي. فقد كان للمشتقات غايتها في هذا النسق اللغوي؛ ومن هذه المشتقات أسماء الفاعلين، وأسماء المفعولين، وصيغ المبالغة وأسماء التفضيل وسواها. وهو ما يمكن أن نلمسه في هذه الصيغ (الظافر، والغالب والمحالف، والمصاحب، والمحافظ، والمراقب، والحاشر والعاقب، والصادع والثاقب والأحفى، والأوفى والمبسوط والمُغِل، والمرتقب، والأعذبُ والأعجبُ، والأعرب والأبين، والنفار، والسفار، والمنتثر والمنبسط، والأَشرف، والأَسعد والمدرار الفيَّاح المنداح، والأقرب، والأبعد.). فهذه الصيغ هي مما اكتمل به البنيان اللغوي لرسائل أبي القاسم القالمي؛ وكل صيغة منها تختلف عن الأخر كثيرا أو قليلا في مبناها وهو ما ينعكس على دلالات المعاني في هذا البنيان اللغوي، مما عبر عنه القول المأثور: ((كل زيادة في المبنى زيادة في المعنى))، ويوضح ذلك ابن جني(ت392هـ) عندما يجعل (الأصوات تابعة للمعاني، فمتى قويت قويت، ومتى ضعفت ضعفت ويكفيك من ذلك قولهم: قَطَعَ وقَطَّعَ وكَسَرَ وكَسَّرَ زادوا في الصوت لزيادة المعنى واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه).

3. 3.الأفعال

الأفعال جزء أساس من النسيج اللغوي لرسائل أبي القاسم القالمي؛ وقد سلف القول في الجملة الفعلية، ما تؤديه الأفعال من إضفاء دلالات الحركة والتجدد للخطاب ويلاحظ التفاوت في حضور أنواع الفعل وهو ما يمكن بيانه فيما يأتي:

– الأفعال الماضية: وهي من حيث دلالتها الزمنية حملت دلالة الماضي القريب الذي يؤشر على أن فعل كتابة الرسالة يواكب الأحداث المخبر عنها في حينها أو بعدها مباشرة، وأغلب هذه الأفعال تأتي واصفة للانتصارات ومبشرة بها، ومبتهجة بالوقائع السعيدة؛ وهو ما نجده في مثل قوله: (فالحمدُ للهِ الذي تَمَّم مقاصدَ أوليائهِ فيما اعتمدوهُ من إقامةِ أمرِهِ الواجبِ. وأنافَ بأغراضِهم المقصورةِ على مرضاتِهِ. وبلَّغهم في أعدائِهم...وإنَّا كتبناهُ إليكم – كتبكم الله ممن تعرف آلاءه المستعادة وجعل انتظار الفرج بالصبر عبادة، وبوَّأ بقرارة اليقين لتنجر ما في ضمن الوعد من كل فتح مبين مهاده، وقابل نعمه التي تجلي قرة أعين صورتها، وتثني ثبج أسماع سورتها، من الشكر الاحفى، والحمد الأوفى.) وربما عبر هذا النمط من الأفعال عن الماضي المنقطع؛ وقد عبر النحاة عن معنى الانقطاع بحصول الفعل مرة واحدة وعدم تكراره ( )؛ ويكثر في وقوع الفعل المضي خبر لكان في نحو؛ (وقد كنَّا قدَّمْنَا مطالعتكم بما سنَّاه الله تعالى). ويبنى الفعل الماضي للمعلوم كما مر؛ ويبنى للمجهول في مثل قوله: (ونحن نحمد الله على آمال في إظهار أمره وُفيتْ، وصدور المؤمنين من أعدائه وأعدائهم شُفيتْ، وأَقذاء من مشارع دينه طُحرتْ ونُفيت، وآثار كفر طُمِستْ بمظهر الإيمان وعُفيت، وأرحام حقوق الله تعالى؛ وقد كانت بفناء العقوق جُفيتْ).

–الأفعال المضارعة : هي من الأفعال المتواتر شيوعها في رسائل أبي القاسم القالمي وهي من حيث دلالتها الزمنية حملت دلالة الحال والاستقبال؛ وذلك في مواضع الإخبار بالمسرات أو في إظهار الشكر والثناء في مثل قوله: (ونحن نحمد الله على آمال في إظهار... وإلى

مقتضى آثاره من كل حدب ينسل، وأحلناكم فيما وصل على ما سيصل... والآن – والله يوزع شكر نعمائه) وربما جاءت دالة على إخضاع الأعداء ؛ نحو(فوصل أعيانُهم يمدُّون يد الاستتابة، ويطلقون ألسنة الإنابة ويتعوَّذون من حرَّم هذا الأمر بالأمن والمثابة). أو للدلالة على حال المآل؛ نحو (وقدَّمه يسعى بين يديه إمَّا نارًا وإمَّا نورًا) وقد يأتي مسبوقا بالنفي في سياق التعبير عن القضاء على الخصوم في مثل قوله (لا ذكر يسمع، ولا حديث يرفع، ولا أَثر يتقصَّى ويتتبَّع؛) وربما أتى مجزوما أو منصوبا في مثل قوله (فلم يَجِدوا إلى مُستخلصٍ سبيلاً... ولَنْ تجد لسنّةِ الله تبديلا) .

–أفعال الأمر: تتصف رسائل أبي القاسم القالمي بضآلة أفعال الأمر، ومع أن الرسائل تكون في اتجاهها أفقيا أي من الخليفة الذي يملك سلطة الأمر والتوجيه إلى من هو أدنى منزلة؛ إلى أن عدم الميل إلى استخدام هذا النمط من الأفعال يحمل أغراضا بلاغية؛ مثل التأدب والطلب باللين، وتجنب إظهار الفارق بين المتكلم في الرسالة والمخاطب وسواها .

ومع ذلك فلم تخلو رسائله من بعض صوره التي تأتي في سياق الدعوة إلى الاعتبار أو الدعوة إلى الفرح والابتهاج بالانتصارات الموحدية في مثل قوله (فاعتبروا بهذه الدلائل اللائحة والبراهين الواضحة، أنَّ هذا الأمر العزيز إلى قيام الساعة مداه ... فاشرحوا صدوركم، وأقيموا بهذه البشائر أموركم، وأشعروا بها جمهوركم، وأعقدوا بإهدائها جذلكم وسروركم. والله تعالى يجعلكم ممَّن اعتمد النعم بشكرها، ووفَّاها واجب قدرها، وارتبط كرائمها بمواصلة ذكرها، إن شاء الله.).

4. 3أدوات الربط

تضطلع أدوات الربط بدور مهم في بناء الخطاب اللغوي لرسائل أبي القاسم القالمي وهو شديد العناية بها إحكاما وضبطا لنصه في صورة التماسك والترابط إلى جانب الوظائف اللغوية والدلالية الأخرى التي تميزها؛ وهذه الأدوات منها ما هو من الأسماء ومنها ما هو من الحروف

وأكثرها شيوعا وتناثرا في رسائله هي حروف العطف التي تعمل على ربط نسق الكلام اشتراكا وتخيرا وتراخيا وإضرابا؛ وأكثر أدواته استخداما الواو والفاء. وتتعاضد معها في الاستعمال والوظيفة حروف الجر التي يكثر من أدواتها الحروف" الباء، في، من"، وهو ما يمكن أن نلمسه في هذه العبارات في قوله: (هَذا الفتحُ – وفقكم الله وأعانكم– وإنْ كَانَ عظيماً في نفسِهِ، عَالياً في جنسِهِ، فإنَّه للفتوح مفتاحٌ، وبَين يَدي السَّعي فيها مصبَاحٌ، وإنّهُ رائدُ الفُتوحِ المنتظرة وعُنوانُ الخيراتِ الميسَّرة ونَازلٌ من الفتوحِ الآتية بمحلِّ البَاكرِ من الثَّمرةِ.).

الملاحظ أن حروف العطف هي الرابط الأول للجمل وتردفها حروف الجر في هذه الوظيفة. إلى جانب ذلك نجد حروف النفي، والاستفتاح، والتوكيد، والتحقيق؛ نحو (لا، ما. ألا إمّا، أما. أن إن.) ومن الحروف ما يرتبط بالأفعال كحروف النصب والجزم والتحقيق وسواهما

(لم، لا، لن، إنْ، كي، قد)، وهناك من الحروف ما يرتبط بالأسماء كحروف النداء، والظرف وكل دوره في إحكام النسق اللغوي في رسائل أبي القاسم القالمي.

وإجمالا فإن البناء اللغوي لرسائل أبي القاسم القالمي يتميز بالتنوع في تراكيبه اللغوية في صورة الجمل الفعلية التي حملت معنى النشاط والحركة والتجدد الذي اقتضته الأحداث التي عبرت عنها رسائله، والجمل الاسمية وما أدته من وظائف تجسد في دلالتها على الثبوت والتأكيد والمبالغة في وصف الفتوح والانتصارات، وقد تراوح نظام الجمل من جانب الكم؛ بين الطول والتوسط والقصر بحسب ما تطلبه الإيقاع الصوتي لحالة التناسب بين أقسام الكلا، وقد تضافرت الأبنية اللغوية من أسماء وأفعال في تلوين النص وثرائه؛ وكان لأدوات الربط من حروف وأسماء دور مهم في تحقيق تماسك نصوص رسائله وترابطها.

خاتمة:

نخلص في خاتمة هذه الدراسة التطبيقية إلى أن فن الترسل الديواني في الأدب الجزائري القديم يعد أحد أشكال النثر الفني الذي بلغ منزلة رفيعة بفضل نسقه الفني الجميل الذي يحمل غرضا من الأغراض

الهادفة، ليتحول إلى صناعة لها أصولها التي تحكمها قواعد السبك، والتجويد، والإتقان؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى كتاب الدواوين الذين ارتقوا بأساليب الكتابة وتفننوا فيها، وجعلوا من فن الترسل أداة تعبيرية وسجلا حافلا بقضايا عصرهم.

– وتعد شخصية الكاتب أبو القاسم عبد الرحمان القالمي وجها مشرقا للأدب الجزائري في العصر الموحدي؛ رغم إغفال كُتاب التراجم عن سيرته بدءا من وجوده في مدينة بجاية في ظل الدولة الحمادية؛ وتخرج عدد من الكتاب المتميزين على يده، ثم صحبته بعد ذلك لأمراء الدولة الموحدية. وقد تميزت رسائله الديوانية بجلالة المضامين التي تعرض لها، مما يجعلها وثيقة أدبية ذات قيمة تاريخية؛ تسهم في التأريخ لوقائع مهمة في مسارنا التاريخي الوطني.

–تتميز لغة هذا الكاتب بالجزالة والدقة في التعبير، وهو ما دعا الناقد شوقي ضيف –رحمه الله–إلى إصدار هذا الحكم اللغوي النقدي في شأنه : (ويكثر من تلاحم الألفاظ لدقة انتخابها واختيارها مما يدل على أن القالمي كان كاتبا بارعا حقا.) .

–يتصف البناء اللغوي لرسائل الكاتب بتنوع تراكيبه اللغوية التي حملت معنى النشاط والحركة والتجدد الذي اقتضته الأحداث التي عبرت عنها رسائله، أو دلالتها على الثبوت والتأكيد والمبالغة في وصف الفتوح والانتصارات، وتراوح نظام الجمل في جانبه الكمي؛ بين الطول والتوسط والقصر بحسب ما تطلبه الإيقاع الصوتي لحالة تناسب فواصل الكلام.

– تضافرت الأبنية اللغوية من أسماء وأفعال في تلوين النص وثرائه؛ وكان لأدوات الربط من حروف وأسماء دور مهم في تحقيق تماسك نصوص رسائله وترابطها.

.قائمة المصادر والمراجع

–محمد تحريشي، أدوات النص، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، د.ط، 2000، دمشق، سوريا.

–كُتاب الدولة الموحدية، مجموع رسائل موحدية من إنشاء كُتاب الدولة المؤمنية، ليفي بروڤانصال المطبعة الاقتصادية د.ط، 1941، الرباط، المغرب.

–عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، ط02، 1976، بيروت، لبنان.

–قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح: عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، د. ط، 1980، بيروت، لبنان.

–فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، شركة العاتك للنشر والتوزيع، ط02، 2003، القاهرة، مصر.

–ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح : أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار النهضة، ط02 1973، القاهرة، مصر.

–الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح : رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط، 1981، الجزائر.

–أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تح، علي ناصف النجدي، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر 1994 ج2

– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي–عصر الدول والإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا السودان)، دار المعارف، ط01، 1992، القاهرة، مصر.

6. الهوامش والإحالات

– (1)نقد النثر، قدامة بن جعفر، تح : عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، د. ط، 1980، بيروت، لبنان ص.95

– (2)عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، ط02، 1976، بيروت، لبنان، ص448.

– (3)ينظر : محمد تحريشي، أدوات النص، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، د.ط، 2000، دمشق، سوريا، ص25.

– (4)كتاب الدولة الموحدية، مجموع رسائل موحدية من إنشاء كُتاب الدولة المؤمنية، ليفي بروڤانصال، المطبعة الاقتصادية، د.ط 1941، الرباط، المغرب، ص114.

– (5)المصدر نفسه، ص115.

– (6)بالتصرف عن : أبو القاسم القالمي، الرسالة الثانية والعشرون من : مجموع رسائل موحدية، مصدر سابق، ص ص 122 123.

– (7)قدامة بن جعفر، نقد النثر، مصدر سابق، ص93.

– (8)أبو القاسم القالمي، الرسالة الحادية والعشرون من : مجموع رسائل موحدية، مصدر سابق، ص115

– (9)ينظر : فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، شركة العاتك للنشر والتوزيع، ط02، 2003، القاهرة، مصر، ج01، ص15

– (10)أبو القاسم القالمي، الرسالة الثانية والعشرون من: مجموع رسائل موحدية، مصدر سابق، ص 124

– (11)ينظر : فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، مرجع سابق، ج01، ص16

– (12)ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار النهضة، ط02، 1973، القاهرة، مصر، ج02، ص234

– (13)المعرفة: ما وضع لشيء معين. والمعارف هي الضمير والعلم، واسم الإشارة، والمعرف بأل، والاسم الموصول، والمضاف إلى معرفة، والمعرف بالنداء. ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، مرجع سابق، ج01، ص32

– (14)ينظر: أبو القاسم القالمي، الرسالة الحادية والعشرون من: مجموع رسائل موحدية، مصدر سابق، ص121،118

– (15)أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تح، علي ناصف النجدي، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر، 1994، ج2، ص45.

– (16)ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، مرجع سابق، ج03، ص276.

–(17)يشار هنا مثلا : إلى الكاتب البارع – الذي أشاد به النقاد والمترجمون– الشيخ الجليل أبو الفضل ابن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي (الذي عاش ما بين: 540هـ– 598هـ)؛ وهو أحد طلابه البارعين الذين أخذوا فن الكتابة وأصولها على يده في مدينة بجاية. للتوسع ينظر: الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، مصدر سابق، ص83 .

(18) – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي–عصر الدول والإمارات، مرجع سابق، ص244.